

الاتجاه الإنساني :

في شعر المهجر كله ، ظهرت نزعة إنسانية واضحة، تدعو إلى الأخوة والمحبة ، والوحدة بين الناس ، وترفض الظلم والكرهية والتفرقة . وربما تأصلت هذه النزعة لدى شعراء المهجر منذ أن رحلوا عن أوطانهم ، وحلوا أرضهم الجديدة التي جابهوا فيها الصعاب ، وشعروا بالمهانة ، ووقفوا أسرى للحرمان ، ولذلك لهجوا بحب الناس ، ودعوا إلى الأثرة ، ونادوا بالتسامح ، وعشقوا الحب ، وتحاملوا على الكراهية والحق.

فهذا هو الشاعر ندره الحداد ينادي بكل هذه المثل الإنسانية : فيقول :

يا أخي الساعي لنيل المجد خفف عنك جمحك
أنت لا ترضي سوى نفسك إن أحرزت فتحك
سر معي في الأرض ، تنسى المال والجاه وطمحك
أنا راض بالعصا يا أيها الحامل رمحك
وسأرضى خبزك الأسود في الحب وملحك
وسأنسى جرح قلبي كلما شاهدت جرحك
وأرى ليلك ليلي وأرى صبحي صبحك
وإذا اخطأت نحوي فأنا الطالب صفحك

ويسخر أبو ماضي من انقسام المجتمع الإنساني إلى فقراء وأغنياء ، ويدعو إلى عطف الإنسان على الإنسان .

ويدعو الشاعر القروي إلى الإحسان ويذم البخل ويمدح الجود والعطاء فيقول : -

من حبة القمح أتخذ مثل الندى يا من قبضت عن الندى يمناكا
هي حبة أعطتك عشر سنابل لتجود أنت بحبة لسواكا
حلمت بأن ستعيش في خير القرى فتراقصت للموت نحو رحاكا

والواقع أن شعراء المهجر عموماً قد دعوا في شعرهم (إلى نشر المبادئ السامية ، - والمثل العليا بين الناس ، ومحاربة النظم التي تباعد بين الإنسان وأخيه الإنسان ، والعمل على

خلق مجتمع إنساني يسوده العدل والرحمة والمحبة ، وعلى تخفيف الشقاء الإنساني وتصوير الحياة بصورة محبة إلى النفوس ، وهو المحبة الصحيحة لكل ما في الوجود بغير تفضيل (أو تفریق).

وعلى الرغم من أن كل شعراء المهجر قد اجتمعوا على هذه الدعوة الإنسانية وضمنوها قصائدهم ، إلا أنها قد شكلت ظاهرة بارزة في ديواني (الخمائل) و(الجدائل) لأبي ماضي وربما كانت قصيدة (أخي) لميخائيل نعيمة التي حملت الكثير من المعاني الإنسانية ، خير دليل على ما كانت تطمح به نفس الشاعر من قيم عليا ومثل إنسانية . وتمثلت هذه في إحدى قصائده التي ورد فيها قوله :

نسقي القريب والغريب

واجعل اللهم قلبي واحة

وكذلك في قول نعمة قازان :

ولا بأس أن تكسروا جرتي

ألا فاشربوا الوحي من جرتي

ولا ترفعوها على صحتي

إذا كان فيها الحياة اشربوا

خير ما يؤكد سماحة نفسه وطيب قلبه .

ة

وقد التفت بعض شعراء المهجر إلى المجتمع العربي ، فرأوا في حياته مادة ثرة التجسيد النزعة الإنسانية ، فالمجتمع العربي في الشرق على الخصوص يموج بالحركة التي تمد الشعر بالموضوعات الإنسانية .

وقد التفت الشاعر زكي فنصل التفاتة ذكية إلى بعض هذه الصور التي تعكس حال الطبقة الكادحة ، الذين (يتفصد جبينهم بالعرق ، وتلهث حياتهم كدأً وتعباً ، ويسهمون بأوفر نصيب في بناء الحياة الإنسانية ، كما مسح الأحذية والبناء والعتال والمعلمة وبائعة الزهر ، وغيرهم من المشتغلين بالمهن الشريفة النافعة . كما يقول الشاعر : فقد أحس بالآلام هذه الفئة الكادحة من البشر فحاول أن يصور حياتهما في شعره).

وجاءت قصيدته (بائع السوس) لتؤكد إحساسه بعمق التجربة ا إحساسه بها ، إذ يقول:

احمل الشراب وطاف بالبشر
يكفيه أن الشمس تجلده
فإذا اتقى بالطفل لفحتها
هاضت جناحيه الصعاب فلم
مادام في عرينه شمم
بالقمة بدمائه انغمست
يارب أنقذه من الخطر
ابدا باسواط من الشرر
هبت عليه الريح من سقر
يقعد، وناشته فلم يخر
فلتعصف الأهوال ولتثر
لم تتركي منه سوى أثر

وعلى هذا النحو تسير قصائده الأخرى مثل : بياع الجرائد ، العاملة ، الخباز ، الشرطي ، الفلاح.

وهذه الموضوعات تذكرنا بموضوعات العقاد بديوانه (عابر سبيل) التي تظهر فيها الواقعية بكل ما تمتلك من صدق وحيوية ودقة ، وهي قصائد تنتمي جميعا مع ما ذكرنا من قصائد زكي قنصل إلى هذه النزعة الإنسانية التي تستمد من الإنسان الكادح مادتها التصويرية ، لتؤكد ما يحس بها من صدق في العواطف ، ونبل في المشاعر وإحساس بالقيم البشرية والإنسانية .

ومن المعاني التي تضمنتها هذه النزعة في شعر المهجر ، الدعوة إلى الثورة على التقاليد الاجتماعية التي تحد من حركة الإنسان وحرية وطاقته ، فقد ثاروا على الاقطاع وعلى التفرقة الدينية والمذهبية ، وحرصوا على الاستعمار ، ونددوا بالحكام الظالمين وأكدوا على حرية المرأة في العمل ، وحريتها في اختيار الزوج ، ومطالبتها في المساواة بينها وبين الرجل في الحقوق والواجبات ، وثاروا على الأوضاع المتوارثة التي تضعف من قيمتها و تقلل من شأنها .

ومن ذلك أيضا دعوتهم إلى المحبة بين البشر وإلى الإخاء والتسامح والعطف والتعاون ووقفوا من مشكلة الفقر والغنى موقفا رومانسية ، إذ لم ينادوا بالثورة على الأغنياء ، بل استعطفوهم الرفق بالفقراء ، وحملوا الطبيعة البشرية أسباب هذا الظلم .

ومن المعاني الإنسانية التي دعوا إليها ، تحمل الأذى والبغي ، من أجل أن يسود مجتمع إنساني ، تسوده المحبة ، وتبني أسسه على العطاء والخير ، وربما كان لعمق المبادئ

السامية المتمثلة بالقيم الروحية التي جبلوا عليها وتربوا على مبادئها ، دور في هذه الدعوة المطلقة المفتوحة ، التي تحمل فيها الشاعر المهجري كل ألوان الظلم والعسف في سبيل تأكيدها ، والتي تبدوا في قول جبران موجها حديثه إلى إخوانه البشر الذين ينزعون هذا المنزع.

يامن يعاديننا وما إن لنا

ذنب اليه غير أحلامنا

لوموا وسبوا والعنوا واسخروا

وسادرو أيماننا بالخصام

وابغوا وجوروا وارحموا واصلبوا

فالروح فينا جوهر لا يضام

وهي دعوة تتسلح بالمثل التي نادى بها الانجيل ، والذي أشربت أرواحهم فيه.

وهذه الدعوة قد أكدت في شعرهم (منطلق السمو بالنفس والاستعلاء بها فوق أحقاد الناس وكراهيتهم ، وتجاوز كل آفات الضعف البشري والانتصار عليها بالرضى والصبر والإيمان بالنفس وبكل قيم الحب والمودة والسلام).

ومن هنا تحقق في شعرهم (ظاهرة مشتركة تلقي ضوء على أحوالهم النفسية التي صدروا عنها في أشعارهم ، طمأنينة عامة تسود حياتهم ورضى بما قسم لهم ، وصبر على ما أنزلته بهم الأيام).

وتمثل قصيدة ميخائيل نعيمة (الطمأنينة) خير شاهد على تحقق هذه الظاهرة لدى شعراء المهجر وهذه الظاهرة - شيوع الطمأنينة - هي التي طبعت شعر أكثرهم بطابع التفاؤل

والنظر إلى الحياة بالابتسامة والرضى والأمل والأستشار .

وقصيدة أبي ماضي (فلسفة الحياة خير ما يمثل النزعة التفاؤلية . وهي بلاشك تلتقي في أصولها العميقة بالمعاني الإنسانية التي فطر عليها الإنسان في سلوكه وعلاقاته مع أبناء جنسه ، لذلك فإن نزعة الرضى هذه تجسد روح الإنسانية التي يجب أن تقوم عليها علاقات البشر مع بعضهم البعض الآخر .

ولابد من تعليق لهذه النزعة الإنسانية التي أتجه إليها شعراء المهجر ، أهي حصيلة للأفكار الغربية والبيئة الأمريكية ، وما يتصل بها من تقدم حضاري ووعي اجتماعي وتطور أدبي ،

أم أنها في أصلها أثر من آثار الرسالة الروحية التي حملها الإسلام وحملتها المسيحية في بيئاتهم المشرقية ، والتي تأصلت في نفوسهم وصارت الموجه الأساس للعلاقاتهم وتفكيرهم وتصرفاتهم.

أغلب الظن أن البيئة المهجرية الجديدة لم تحمل هذه البذور الإنسانية التي انطبعت عليها نفوس هؤلاء الشعراء ، لما تتضمنه من اعتداء بالمادة وحضارتها التي وجهت ولا تزال ، سلوك الفرد والجماعة في الغرب والتي توجهت عنها كل أوجه النشاط الإنساني وسعيه إلى المادية الصرفة ، بعيدا عن المثل التي تنادي بها الأديان السماوية وقيمها الروحية .

ناهيك عن أن الدين ، فقد وظيفته الحقيقية حين صوب الإنسان نظره إلى معطيات العلم ، وفقد تلك القيم التي تنادي بها الأديان السماوية . لذلك نرى أن المعاني الإنسانية التي احتشدت في شعر المهجر ، تمتد إلى تلك القيم الروحية التي ظل الإنسان المشرقي ولا يزال ، يحملها ويعتد بها ، ويصدر عنها في كل علاقاته وتصرفاته ومواقفه .

وربما يظهر هذا الأثر الروحي في أبيات (فرحات) التي يقول فيها :

وحدت أو أشركت ذنبك واحد	إن كنت بين الناس غير موحد
سكنوا مناطق جمة فتعددت	ألوانهم والنوع لم يتعدد
فإذا حكمت على امرئي لسواده	فلقد حكمت على حسام مغمد
فلرب قلب كالجماعة أبيض	للخمر يخفق تحت جلد أسود

وفي هذا النص فكر إسلامي يرى أن الناس سواسية ، لا يختلفون لجنس أو لون وهو فكر يناقض واقع الحياة الأمريكية وعلاقاتها التي تفرق بين الأبيض والأسود . وربما . كان في أبيات ندره حداد التي أستشهدنا بها في أول كلامنا على الاتجاه الإنساني ، دعوة إلى النصح والتسامح والمحبة ، وهي معان نادى بها الإسلام كما نادى بها المسيحية .

وعاش المهجري في الغرب آخذاً نفسه بما انطبع عليه في المشرق من خلف : الازدراء للعالم ، والتواضع ، وعدم الشكوى والقناعة ، والانصراف عن النهم المادي . ومع أن الشاعر قد ألزم نفسه الحفاظ على هذه المبادئ ، غير أنه لم يرتض لصغيره ذلك ، فيما يتعلق بجمع المال ، فتراه يوصيه بالجمع له ، على ألا يغفل فضيلة العطاء كرما بالمال).

وهكذا راح الشاعر (ندرة حداد) يخفف من غلواء المادية الغربية حين يوجهها بالقيم الروحية
المشرقية السمحة التي نادى بها السماء ، فقال مخاطب ولده :

جئت يابني مثلما	والدك المسكين جاء
جئت دنيا كلما	محصلتها ازدادت ازدراء
وإذا ازدادت بها	معرفة زادت خفاء
عشت بين الناس	لا أصحاب إلا الفقراء
لا أبالي أن أكلت	الصبح ما كان عشاء
ولزمت الصمت لا	أشكو هموما أو شتاء
وعلى المال وأهل السما	ل وليت الآباء
هكذا عشت ولا	أطلب أن تحيا اقتداء
أجمع المال إذا استطعت	ولا تنس العطاء
حسب من يعطي ثناء	الناس أن رام الثناء

ولو رحنا نعرض هذه المعاني على الكتب المقدسة لوجدناها تحتفل بها احتفالا شديداً ، و
تحض على تطبيقها ليسود المجتمع الحب والإخاء والوحدة

وهكذا راح شعراء المهجر يستنبطون المعاني والقيم من الكتب الدينية المقدس ومن تراثهم
المشرقي الخالد، وياخذون من مجتمعهم المشرقي و عاداته واعرافه وقيمه ومثله ، كل
المعاني ويعتمدون أفكاره ليمثلوا بها شعرهم ، ويضمنونها قصائدهم حتى امتلأت ثراء فكرية
واحتشدت بالمعاني المبتكرة التي لم يألفها الشعر الغربي ، وانما الفها من قبل ، شعرنا في
المشرق العربي عند مجموعة من الشعراء كالرصافي والزهاوي وحافظ ابراهيم وغيرهم.

الاتجاه القومي والوطني :

تتمثل أصالة الشاعر المهجري ، في احتفاظه بحبه لوطنه ، و تمجيد مآثر أمته ، وذلك أمر
، جر اليه حنين الشاعر إلى موطن الولادة ، ومرابع النشأة وعلى الرغم من بعد المسافة

المكانية والزمانية التي كانت تفصل بين وطنهم وبين البلدان التي هاجروا اليها ، إلا أنهم ظلوا محتفظين بعواطفهم وحبهم تجاه أهلهم وأبناء جلدتهم الذين ظلوا يعانون من التخلف وما كان يسود حياتهم من هوان وضعف.

وقد احتفظ شعر المهجريين بشعر ضخم يحتفل بالدفاع عن البلاد واستنهاض واستنهاض الوطن ومقاومة التعصب الطائفي والرضوخ للمحتل والاستكانة للحاكم المستبد، والرضى بالفقر والذل . ولذلك صبوا جام غضبهم على الزعامات الفاسدة والسياسات المستبدة والكيانات الهزيلة ، ووصفوها بأبشع الأوصاف واتهموا أصحابها بالخسة والضعف والاستسلام.

ومن أشد الشعراء تأكيداً لهذه المعانى ، الشاعر القروي ، الذي استنهض الوطن وهاجم الحقد والبغضاء في قصيدته (الداء العياء) . وقد هاجم فيها الطائفية والتعصب . ولا يكتفى الشاعر بهذا التصوير لحال لبنان والأمة العربية ، بل يسنده بصورة الأمة العربية وتراثها المجيد الحافل بصور الأمجاد والبطولة.

ويهاجم (الياس قنصل) الزعامات المستسلمة للاستعمار ، ويدعو إلى أمثاق السيف دفاعاً عن الوطن ، وينعي على الجيل الجديد الذي استشرى فيه الفساد ، ونام عن الدفاع عن الوطن فقال يصف أبناء وطنه :

وأهلوه حتى الآن لم يتوقفوا	إلى مرشد حر ولم يتألبوا
وقد رضخوا للأجنبي ونيره	فباروا واستذلوا وعذبوا
ومالي أراهم جانحين إلى الرضا	وقد سكتوا والظلم يطفو ويرسب
ولا يغفر العار الذي حف أهله	وسكانها إلا الحسام المشطب

ومن الشعراء الذين أسهموا في الذود عن الوطن ، انطلاقاً من حبهم له واعتزازهم بأهله وحرصهم على سيادته ووحدته وعزته ، الشاعر (الياس فرحات) الذي هاجم الطائفية والمذهبية ، والشاعر (نعمة الحاج) الذي أتهم الغرب بالتعصب و بالبعد عن التحضر والتقدمين ، والشاعر (أبو الفضل الوليد) الذي دعا إلى الوحدة العربية ، و(يوسف فرحات) الذي أكد هذه الوحدة .

ولم يصور الشعراء واقع بلادهم المتهرئ وحسب ، بل قابلوه بالاعتداء بالعنصر الحضاري الذي حفظ للأمة العربية بقاءها ونقاءها .

من ذلك فخر (أبو الفضل الوليد) بتاريخ العرب وصوره الحضارية ، و(جورج كعدي) الذي يبين فضل القرآن ولغته العربية على العرب .

وعلى هذا الوتر الحضاري العربي الإسلامي ، ضرب شعراء المهجر في الشمال وفي الجنوب ومنهم عدا من ذكرنا (شكر الله الجر) و(ميشيل مغربي) و(جورج عساف) وقد استطاعت الدكتورة عزيزة مريدن) أن تضع يدها على هذه النزعة ال والإنسانية التي تؤكد عنصر الأصالة لدى شعراء المهجر الجنوبي خاصة

ويستخلص من القصائد التي أكدت هذا العنصر القومي الوطني في الشعر المهجري. أن هؤلاء الشعراء قد تراوحت مواقفهم ، بين الهجوم على الاستعمار من جهة وبين الكشف عن صورة التهريء التي تنتاب الأمة العربية ، والتغني بأمجادها و الحضارية المتألقة ، مما يؤكد أن البيئة الجديدة ، ومغرياتها المادية والحضارية والعلمية ، لم تلغ اعتزازهم بتراث أمتهم

ويلاحظ أن شعراء المهجر الجنوبي ، كانوا أكثر حرصا من شعراء المهجر الشمال في الكشف عن العنصر الحضاري لأمتهم. وربما كان للبيئة الشمالية التي أغرت أصحابا بالعنصر المادي ، دخل في هذا .

على أن هذه الملاحظة لا تعني أن شعراء المهجر الشمالي قد تخلوا عن إخوانهم العرب في محنتهم وتخلفهم ، ولا يعني أيضا تخليهم عن اعتزازهم بمآثر أمتهم وأمجادها وحضارتها ، فهذا هو الشاعر (إيليا أبو ماضي) تستصرخه أحداث بلاده وتخلفها واستسلام أهلها ، فيستنهض أبناءها ويستفز مشاعرهم الوطنية ، وأحاسيسهم القومية ضد الاحتلال والتخلف والتعسف ، وله في هذا قصائد (الشاعر) و(الشاعر والأمة) و (العميان) و(تبر وتراب) وغيرها من التي تعد من غرر القصائد القومية والوطنية . وباستقراء معانيها تبين موقف الشاعر من أمته وبني وطنه ، ففيها يظهر حرصه وحبه لبلاده .

وقد سلك الدرب نفسه الشاعر رشيد سليم الخوري والشاعر القروي وامين الريحاني ، والياس فرحات وغيرهم من شعراء المهجر الشمالي والجنوبي.

وعلى هذا النحو راح شعراء المهجر يضربون في أبعاد الماضي (ويستظهر شعرهم وراثات أسلافهم ، وضروبة من الحس التاريخي ، تصل بينهم وبين قدامهم وفهم لم يحسوا حاضرهم وحده ، بل أحسوا معه ماضيهم ، إحساساً مستمراً دائماً لا ينقطع في كل ما ينظمون من خواطر ، ويصوغون من عواطف وأفكار ، وربما كانت ثورتهم التي يعلنونها ، أكبر دليل على وعيهم للماضي ، وأنهم لم يفرطوا في الاتصال به والإحساس بجزيئاته) وقد أنتبه شوقي ضيف إلى تجاربهم التي لا تكاد تتميز في شيء عن تجارب العصور الماضية ، إلا من حيث الارتباط بأوضاع زمنية جديدة ، وذلك حين وضع يده على بعض ما تركوه في مطولاتهم الشعرية من مثل (على بساط الريح) لفوزي المعلوف ، و (عبر) لشفيق المعلوف ، إذ الرحلتان في حقيقتهما (صورتان جديدتان من رحلة) (التوابع والزواج) لأبن شهيد الأندلسي و(رسالة الغفران للمعري ، وأحاديث المعراج النبوي) وأحاديث الجن والشياطين في قصصنا الشعبي والديني معا).

على أن أشد الظواهر الشعرية صلة بنزعتهم القومية ، ظاهرة الحنين التي تجسدت فيها عواطفهم الوطنية وأحاسيسهم الإنسانية ومواقفهم النبيلة تجاه أهلهم وذويهم، وحرصهم على وحدة أبناء أمتهم، وإقالتهم من عثراتهم ، وإنقاذهم من العبودية التي قيدت حريتهم ونالت من كرامتهم ، وهكذا راح شعراؤهم يعبرون عن الحسرة على فراق أوطانهم ومدى الشغف بها والشوق إلى لقائها ، على الرغم من أن حضارة البيئة الجديدة قد صهرت معظمهم في معدنها الجديد، إلا أنهم رغم هذا الانصهار ، ظلوا يتميزون بأصالة معدنهم القديم ولم تغرهم صور الحياة الجديدة ، وما فيها من بريق أخاذ عن حق البراءة والفطرة التي تميزت بها بيئة أوطانهم ، والسبب في ذلك - كما نرى - أن هؤلاء المهجريين (قد تركوا بلادهم ذات الطبيعة السمحة الجميلة وهجروا حياة قانعة بسيطة محافظة وخلفوا وراءهم مراتعهم وملاعبهم وأهلهم إلى حيث المادية الصارخة الصاخبة ، وعجزوا عن التكيف معها ، لذا نراهم قد أحسوا الضياع والوحدة والضعف ، ونهض عامل الاغتراب يفعل فعله ، فقد أحسوا بآلام البعد وبقسوة الفراق وبالتهاب الوجد). ومن هنا راح (نعمة الحاج) ورشيد ايوب والياس فرحات ونسيب عريضة وايليا ابو ماضي وميخائيل نعيمة والياس قنصل وغيرهم ، يتغنون بحب الوطن وينعمون بظلال افئائه

تذكرون سفوح جبال لبنان وشجر الأرز وشاطئ ، بردى . ويحنون إلى ملاعب الصبا
ومراتع الهوى . و كأنها كانت جميعا فردوسهم المفقود . فهذا هو نعمة الحاج يعبر عن
حسرتة على فراق الوطن والأحباب ويتوق إلى لقائها ويقول :

تذكرت أهلي في النوى وبلاديا	وقد طال شوقي للحمى وبعاديا
تذكرت هاتيك الربوع وأهلها	وياحبذا تلك الربوع الزواهايا
تطير لها نفسي من الوجد والجوى	ويمسي لها دمعي على الخد جاريا
وتهتز من شوقي اليها جوارحي	كما أهتز غصن مال للريح حانيا
فلا الشوق يدنيني ولا الفكر نائيا	ولا الدمع يحديني ولا القلب ساليا
وداعا وداعا يا بلادي فإنني	أودع مشتاقاً إلى العود ثانيا
وقد يجمع الله الشتيتين بعدما	يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

ويلاحظ أن الحنين إلى الوطن قد سيق بأسلوب رقيق يتغلف بغلالة رمزية خفيفة ، تدعو
إلى حياة الغاب والعودة إلى الطبيعة ، بعيدا عن صخب الحياة المادية والحضارية التي
انحرفت بالإنسان عن إنسانيته ، وحولته بعد براءته المعهودة إلى ذئب ضار تمتد مخالفته
إلى إنسانية الإنسان لتسلبه أعز مضمينها .

ولذلك لم تكن قصائد الغاب وصفاً للطبيعة ، بل جاءت دعوة إلى الحياة الفطرية التي فطر
عليها الإنسان منذ آلاف السنين .

وفي قصيدة (المواكب) لجبران خليل جبران دعوة صريحة للعودة إلى هذه الحياة التي عبر
فيها الشاعر عن ثنائية الحياة التي (صاغها الإنسان لنفسه ، فإذا هو يحمل في قيود تكلمه
من مثل السيادة والعبودية والإيمان والفكر والسرور والحزن والعدل والظلم والعلم والجمال
والخير والشر) والواقع أن هذا (الغاب الذي يفكر فيه جبران ليس إلا لبنان وطنه ، ذلك
الفردوس الذي فقده ، وأرض الأحلام التي غابت عن بصره وراء الأفق البعيد) كما يقول
شوقي ضيف وذلك لخلو هذا الغاب من الظلم والعبودية والفقر والحزن والموت :

وليس في الغابات راع	لا ولا فيها القطيع
ليس في الغابات حزن	لا ولا فيها الهموم

ليس في الغابات موت
لا ولا فيها القبور
ويمضي نسيب عريضة في الدرب نفسه ليقفني أثر جبران فيقول :
يا نفس رحماك أين نمضي
فما أمامي سوى قبور
فلنترك العقل حيث ينبغي
فليس للعقل من شعور

فصاحت النفس بي وقالت
أصبت يانفس فاتبعيني
يا غاب جنائك للتعري
مالي وللناس والزحام
فليس كالغاب من مقام
انا ونفسي ولا حرام

وفي قصيدة (الغابة المفقودة) لإيليا أبي ماضي يهتف الشاعر :
يالهدفة النفس على غابة
كنت وهذا نلتقي فيها
لله في الغابة أيامنا
ماعابها إلا تلاشيها

وهو حنين إلى لبنان موطن الشاعر ، ولكنه كما قلنا مغلف بغلالة رمزية خفيفة اما ميخائيل نعيمة ، فقد كان يحلم حلما ذهبياً بموطنه لبنان ، فإذا هو يضرب بموسيقى شعره على أوتار حسه القومي ليؤكد نزعتة القومية الأصيلة وحبه الدافق ومشاعره الفياضة كل ما يتذكره من صور لبنان العزيز الجميل :

أشجار الغابة تحيينا
وطيور الغابات تناجينا
وزهور الغاب تصافحنا
ونصافحها وتهنينا
أغصان الغاب تلاعبنا
وهوام الغاب تداعبنا
وصخور الوادي تدعوننا
وصدى الاجراس يعاتبنا

ولو شئنا أن نمثل لكل ما تركه شعراء المهجر في ذكر الغاب حيننا لموطن الولادة ومكان
النشأة وملاعب الصبا ، لطال بنا المقام ، لكن الذي نريد أن نقره هو أن هذا الشعر الثر ،
وما ينطوي عليه من عواطف صادقة ومشاعر دافقة ، إن هو إلا تجسيد للنزعة القومية التي
ظل شعراء المهجر مشدودين اليها .

الاتجاه الوصفي :

ونقصد بهذا وصف الطبيعة ، وموقف شاعر المهجر منها وطريقة التعبير عنها وذلك لكي
نفرق بينه وبين وصف النفس ، ووصف الكون ، مما يندرج تحت التأمل الذي فرغنا من
الكلام عليه .

وأول ما يطالعنا من المظاهر الطبيعية التي وصفها شعراء المهجر (الغاب) وعلى الرغم مما
يحتشد في وصف الغاب من مظاهر طبيعية مختلفة الا ان وصفه والحديث عنه ينفرد
بخصوصية معينة ، وهي - كما أسلفنا - تتلفع بغلالة رمزية معينة أيضا، لأن الغاب وما
فيه لا يوصف أو يستوحى ، كما هو الشأن في المظاهر الطبيعية الأخرى ، وإنما الهدف
منه كما تقول نادرة سراج (التمرد والثورة على الحياة المعقدة المشوشة والدعوة الحارة للرجوع
إلى الطبيعة الساذجة البسيطة).

ولعل حياتهم المعقدة المشوشة التي جابهتهم في بيئتهم الجديدة التي لم تلق - وبسرعة -
حالة من القبول أو الرضى ، هي التي دفعتهم - كرد فعل - إلى نشدان حياة الغاب ،
ناهيك عن أنهم أرادوا بهذا الغاب لبنان وسوريا التي تركت فراغا في نفوسهم ، بعد أن
غادروها مضطرين في بعض الأحيان.

لذلك قررنا قبل قليل ، أن الغاب كان أثر من آثار الحنين ، وهذا هو الذي دعانا إلى أن
نجعله من آثاره .

ويستهدف الحديث عن الاتجاه الوصفي هنا ، موقف الشاعر المهني من كل مظاهر
الطبيعة ، وفعلها في نفسه ، وشاعر المهجر كما هو معروف ، يمتلك رهافة في الحس ،
ورقة في الشعور وصدق في العواطف أمام الطبيعة التي نشأ وترعرع وعاش في ظلها في

لبنان وسوريا ، لذلك صارت الطبيعة جزء من نفسه وهي التي رقت من طبعه ، وعمقت موقفه من الحياة .

وعلى الرغم من أن الشاعر الحق يستوحى - عادة - الطبيعة في شعره ، إلا أن شعراء المهجر (في وصفهم للطبيعة تتجلى عندهم روح التفكير الفلسفي والنظرة التأملية إلى كل ما حولهم).

وأول ما لفت نظر شعراء المهجر إلى الطبيعة ، الليل والبحر ، فجيران مثلاً يعجبه الليل ويتجاوب معه ويستشف مكنونات أسراره ، ويشعر نحوه بالألفة والصدقة ، وأبو ماضي يحن إلى الليل ويناغي حبيبته في ظلامه .

ونسب عريضة يذ له التأمل إذا جن الليل ، ويستوحى في ظلمه عظمة الطبيعة والليل لديه يوحى بالعمق وهو وسيلة للتأمل والبحث عن طريق الخلاص

وهذا الموقف من الليل وتصوره ، يختلف عن موقف الشاعر القديم مما كان يخافه ويهرب منه ، وهو كذلك لا يستوحىه بالقدر الذي نجده لدى شاعر المهجر على الخصوص .

ويجيء البحر في المرتبة الثانية في وصفهم للطبيعة وموقفهم الإستيحائي من البحر كموقفهم من الليل ، فقد استوحوا من اضطرابه اضطراب نفوسهم واستوحوا من مده وجزره ما تتراوح فيه نفوسهم من حنين وتطلع إلى ما وراء الطبيعة

ويتجلى في موقف جيران أمام البحر ، روح التفكير التأملية الفلسفية حين ام اليه كل الأشياء في الطبيعة :

غير أن البحر يبقى هاجعة قائلاً في نومه : الكل لي

ويخاطب ميخائيل نعيمة ، البحر بلسان الفيلسوف المتأمل في الأشياء المتطلع إلى أسرار الكون ، ويقارن بين هيجان البحر واضطرابه ، وما يموج في نفسه من اضطراب . وفي طلاس أبي ماضي حديث عن البحر ومع البحر ، وتساؤل عن أصله وعمره وقصده وفيها مقارنة بين خصائص من نفسية الشاعر وبعض خصائص البحر وحديثه مع البحر يحس قارئه و كأنما الشاعر قد تفاعلت نفسه مع البحر .

أنت يا بحر أسير آه ما أعظم أسرك
أنت مثلي أيها الجبار لا تمتلك أمرك
أشبهت حالك حالي وحكي عذري عذرك
فمتى أنحو من الأسر وتنجو؟

لست أدري

وقد تابع أبو ماضي صديقه في نسبته كل شيء إلى البحر ، واستوحى نفسه التواقة إلى المعرفة ، من البحر واستكنه المجهول منه حتى وصل حد اللاأدرية :

أنني يا بحر بحر شاطئاه شاطئاك
الغد المجهول والأمس اللذان اكتفأك
وكلانا صائر يا بحر في هذا وذاك
لا تسلني ما غد ما أمس ؟ إنى

الست أدري

ووقفة أبي ماضي هذه تذكرنا بوقفة ابراهيم ناجي أمام البحر ، حين تأمله واستوحى ما في نفسه من خيرة وقلق واضطراب .

وهكذا يجيء حديث شعراء المهجر (عن البحر ومع البحر حديثا فيه كثير من التأمل والتطلع نحو الأفق البعيد الذي يبدو من ورائه نائية غامضة ، كما أن فيه محاولات للتقرب من البحر والتشبه به في الوحدة والوحشة والسكون ، وفي الهيجان والقلق والاضطراب ، ولا عجب ، فطبيعة هؤلاء الشعراء كانت توحى اليهم بكل هذه الأشياء ، ونفسياتهم المنطوية الحزينة كانت تموج بمثل تلك العواطف) .

ومما تجدر ملاحظته ، أن هذا الاستيحاء والتأمل كان أعمق لدى شعراء الشمال منه إلى شعراء الجنوب .

وفيما عدا الليل والبحر ، اللذين استقطبا عناية شعراء المهجر ، فقد استعانوا أيضا لهذا الاستيحاء بمظاهر طبيعية أخرى من مثل الأنهار والأزهار والرياض والطيور وشكلت

الرياض في شعرهم وحدة طبيعية متكاملة تحتشد بالألوان والأشكال ، وتعبق بالروائح والعتور .

فلميخائيل نعيمة (النهر المتجمد)، ولجبران (البنفسجية الطموحة ولايليا ابي ماضي (زهرة أقحوان).

وارتبطت في رياضهم ، الطبيعة الحية بالطبيعة الجامدة ، وشكلت في قصائدهم لوحات فنية تزهو بالألوان و تعبق بالعتور وتتدفق بأعذب الألحان

وقد ارتبطت مظاهر الطبيعة عند شعراء المهجر ، بالزمن ، فكان فصل الخريف أقرب فصول السنة إلى نفوسهم الآسية ومشاعرهم الدافقة وهي ظاهرة نجد أثرها لدى كل الشعراء الرومانتيكيين في العالم كله ، إذ تسقط أوراق الأشجار في هذا الفصل وتمر بفترة سبات بعيدة عن الحيوية والنشاط . وقد استوحى الشعراء الرومانتيكيون ذبول نفوسهم وخيبة آمالهم وفشل حبهم من هذا الفصل الذي تسببت فيه الطبيعة بل أن أحدهم * قد استوحى أسم ديوانه من أوراق هذا الفصل فسماه (أوراق الخريف) وللشاعرندرة حداد مقطوعة بعنوان (الخريف).

وفي إحدى قصائده يتحدث رشيد أيوب عن (الورقة المنتعشة) التي هبت عليها رياح الخريف .

وكثيرا ما كان الشعراء المهجريون يتخذون من الطبيعة ومظاهرها الكثيرة المتنوعة، مصدر ألهام بحقيقة الإيمان وجوهره، وطريقة مضيئة يلتمسون فيه المضي إلى رحاب الله ، ويلتمسون دلائل وجوده وبراهين عظمته في كل ما أبدع من هذه الكائنات التي تحيط بهم ، والتي هي أبلغ دليل وأصدق برهان على وجوده الأسمى).

وتستطيع قصيدة (ابتهاالات) للشاعر ميخائيل نعيمة أن تقدم كل ما يمكن أن يراه الإنسان في الطبيعة والتي هي دليل القدرة الإلهية ، ويرى فيها صورة من عظمة الخالق المبدع يبقى أن نشير إلى أن النزعة العاطفية ، وحديثها عن المرأة ، قد ارتبط ارتباطا شديدا بوصف الطبيعة وصورة المرأة في الشعر المهجري قد تجاوزت النطاق المادي المعروف ، وأصبح ذكرهم لها يرتبط بالإيحاء الذي وجدناه في وصف الطبيعة ، فالمرأة - لديهم توحى بنظارة

الحياة وبهجتها وبالآمال ، وترتبط بالأمانى والطموحات ، وشكلت في تراثهم الشعري جانبا أساسيا ، وهو ما يلاحظ عند جبران وأبي ماضي والياس فرحات والشاعر القروي وشفيق المعلوف .

لقد مثلت المرأة في شعر المهجريين (محورة من أهم المحاور التي دارت حولها فلسفتهم المثالية ، فهي حجر الزاوية في البناء النفسي والفكري لهذه الفلسفة ، وهي الصورة التي يعكسون من خلالها آفاق وجدانهم ، وهم يرسمون صورة للحياة البشرية كما ينبغي أن تكون).

وهذا ما يمكن أن نجده في قصيدة (الغابة المفقودة) وقصيدة (المساء) لإيليا أبي ماضي وكذلك نجده في قصائد لنسيب عريضة وشفيق المعلوف والياس فرحات وميخائيل نعيمة . وعلى الرغم من أن شعراء المهجر قد اتخذوا من المرأة محور عن النفس والحياة ، إلا أن شعرهم لم يخل من التوجه إلى المرأة بصورة مباشرة ليتحققوا بها موضوعاتهم العاطفية . (فهم يتغنون بها ويهتفون بحبها ويهيمون معها فوق أبراج النجوم وعلى قمم الجبال ، ويرون فيها من وجوه الجمال والسحر ما يتفنون في رسم صورته وتجليته أسراره في نسيج شعري جديد).

ويخاطب ميخائيل نعيمة أوراق الخريف الذاتية بلهجة الإنسان ، ويجعلها محورا للتعبير عن أفكاره الفلسفية ، ومنها كمون المادة وتناسخها وانتقالها في أطوار مختلفة من الحياة . إن هذا الموقف الإستيحائي من فصل الخريف، ويؤكد تجديد شعراء - موضوعات الشعر العربي ، إذ لم يكن هذا الفصل في الشعر القديم يختلف عن غيره من فصول السنة على الرغم من اختلاف طبيعته . لكن شعراء المهجر . هم من أوائل الذين منحوا فصل الخريف هذا المعنى المبتكر ، إذ ربطوا بين مظاهره و مظاهر الإنسان الذي يشبهه ، ولذلك كانت عنايتهم بهذا الفصل أكثر من اهتمامهم بفصل الربيع على عكس ما حصل في الشعر العربي القديم الذي حفل بالعناية بفصل الربيع ، لأنه يمنح البهجة للإنسان، ويعبر عن الحيوية الدافقة في ذاته .

ولم ينس شعراء المهجر فصل الربيع ، لما فيه من جمال وسحر وما يوحي من وحيوية وانسراح وبهجة . وما كان لشعراء المهجر أن يتغافلوه ، وبلادهم كلها تمثل ربيعاً دائماً

تكسوه الخضرة و تغطيه الثلوج وتملاه الأشجار ، وتقوح العطور من أزهاره وتتلون الأرض بألوانه ، و تتشابك فيه الأنهار وتتساقط الشلالات .

وهكذا راح شعراء المهجر يتغنون بفصل الربيع ، ويرتلون له الألحان، ويمنحونه من مشاعرهم الرقيقة وأحاسيسهم الدافقة ما يدل على احتفائهم بمظاهره واحتفالهم بطبيعته .

وقد تميزت قصائد الربيع هذه بأنها حفلت بالدقة والمهارة ، وامتازت بالحيوية والحرارة وبالتصوير الدقيق ، لأن مظاهر هذا الفصل لوحة تتشكل أبعادها من قضايا كثيرة ، الألوان والأشكال والعطور ، وتتعانق فيها ظلالها الطبيعية الحية مع الطبيعة الميتة ، ولعل قصيدة رشيد أيوب(هي الدنيا تستطيع أن تؤكد هذا الاتجاه إذ يقول فيها :

قالوا ربيع قلت أين الصبا

لا أين الفراشات وأين الطيور

أيام أعدو خلفها حافية

وكيفما في الحقل دارت أدور

طائرة، لكنني مثلها

من فرحي ما بين تلك الزهور

أما فصل الشتاء ، فيبدو أنهم لم يميلوا إليه فشكوا من طوله ، لما يثير في انفسهم من ضيق وانقباض